المحاضرة السادّسة: المكّيّ والمدنيّ في القرآن؛ الضّوابط والخصائص

المكّيّ والمدنيّ من القرآن الكريم

علم المكّيّ والمدنيّ تعريفه وعناية العلماء به [1]:

تعريف المكّيّ والمدنيّ :

للعلماء في تعريف المكي والمدني أقوال ثلاثة، أحسنها تعريف من عرف المكي والمدني باعتبار زمان النزول, وذلك بجعل الهجرة حداً فاصلاً، فقالوا :" **المكي ما نزل قبل الهجرة؛ وإن كان بغير مكة , والمدني ما نزل بعد الهجرة ؛ وإن كان بمكة, وما نزل في أثناء الهجرة قبل أن يصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ فهو مكي**" .

وهذا التعريف رجحه العلماء لأنه حاصر وضابط ، ولا تخرج عنه آية من آيات القرآن, خلافاً للقولين الآخرين , لأن من عرفه باعتبار مكان النزول قالوا : " المكي ما نزل بمكة وما جاورها كـ (منى ، وعرفات ، والحديبية) والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها كـ (أحد ، وقباء ، وبدر)" , فإنه غير حاصر ولا ضابط , لأنّه ليس كل القرآن اختصر نزوله على هذه الأمكنة؛ بل هناك آيات قرآنية نزلت في تبوك، والطائف، وبيت المقدس وغيرها، ومن عرَّفه كذلك باعتبار الخطاب؛ وذلك بجعل المكي ما كان فيه (**يَاأَيُّهَا النَّاسُ**), و(**يَا بَنِي ءَادَمَ**) باعتبار أن الكفر كان غالباً فناسبهم هذا الخطاب, والمدني ما كان فيه (**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) باعتبار أن الإيمان كان غالباً فناسبهم كذلك أن يخاطبهم الله بما هو محبب إلى نفوسهم, فهو غير حاصر ولا ضابط, وذلك لأن ليس كل القرآن مصدر أو فيه هذه النداءات الثلاثة .

عناية العلماء بالمكّيّ والمدنيّ :

اهتم العلماء قديماً وحديثاً بموضوع المكي والمدني في القرآن اهتماماً خاصاً , وتتبعوا القرآن سورة سورة ؛ بل آية آية لمعرفة زمان النزول ومكانه، معتمدين على صحيح المنقول , وسليم المنظور وفق اجتهاد قام على أسس وضوابط , ويظهر هذا الاهتمام من خلال النقاط الآتية :

[1] البرهان للزركشي 192/1 وما بعدها، الاتقان للسيوطي 22/1 وما بعدها و 231/1 وما بعدها.

أولاً: عناية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم به؛ كما يقول عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه : " وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ "

وكان علي بن أبي طالب يقول على المنبر: " سلوني,فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم , وسلوني عن كتاب الله, فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بالنهار، أفي سهل أم في جبل ".

ثانياً : هنالك عدد من العلماء أفردوا هذا الموضوع بالتأليف قديماً وحديثاً، منهم مكي بن أبي طالب حمّوش القيسي (ت : 437هـ) ، لكن كتابه مفقود, وعبد العزيز بن أحمد بن سعد الدميري المعروف بالديريني (ت : 694هـ) وكتابه كذلك مفقود .

ومن الدراسات الحديثة :

1- خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها د. أحمد عباس البدوي.

2- خصائص السور والآيات المدنية وضوابطها ومقاصدها لـ "عادل محمد صالح أبو العلا .

ثالثاً: لا يخلو كتاب من كتب علوم القرآن القديمة والحديثة من الحديث عن هذا الموضوع، وتفصيل القول حول أهم النقاط التي تتعلق به, مما يدل على أهميته .

رابعاً: جعله العلماء من العلوم الواجبة على المفسر تعلمها, ويحرم عليه إن جهلها أن يتكلم في كتاب الل.

خامساً : مما يدل على اهتمام العلماء بهذا العلم تلك الفوائد الكثيرة التي نص عليها العلماء، وهي فوائد لا غنىً لمعلم، أو متعلم، أو فقيه ، أو داعية عنها .

ضوابط السّور المكّيّة والمدنيّة وخصائصهما الموضوعيّة[2] :

أولاً : ضوابط السّور المكّيّة :

1- كل سورة فيها سجدة فهي مكية وهي (14) سجدة ، و (ص~) ليست من عزائم السجدات وهي مكية.

2- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية , وذكرت ثلاثة وثلاثين مرة, في خمسة عشرة سورة ، في النصف الأخير من القرآن ، لأنها كلمة رد وزجر تناسب عناد المشركين وكبريائهم.

[2] علوم القرآن لعتر ص55 وما بعدها. المدخل إلى علوم القرآن للنبهاني ص94 وما بعدها.

3-كل سورة مبدوءة بقسم فهي مكية, وهي خمس عشرة سورة هي "الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، القمر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر" .

4-كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي فهي مكية، ما عدا البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع، فيكون الباقي سبعة وعشرين سورة مكية.

5-كل سورة فيها (**يَاأَيُّهاَ النَّاسُ**) وليس فيها(**يَاأَيُّهاَ الَّذِينَ ءَامَنُوا**) فهي مكية كيونس، وفاطر, أما إذا انفردت فيها (**يَاأَيُّهاَ الَّذِينَ ءَامَنُوا**) فهي مدنية .

6-كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية ما عدا سورة البقرة .

7-كل سورة فيها قصص الأنبياء , والأمم الغابرة ؛ فهي مكية سوى البقرة وآل عمران.

ثانياً : ضوابط السّور المدنيّة :

1- كل سورة فيها ذكر الفرائض والحدود فهي مدنية .

2- كل سورة فيها ذكر أهل الكتاب ومجادلتهم فهي مدنية.

3- كل سورة فيها ذكر الجهاد ، أو الحث عليه ، أو توضيح أحكامه فهي مدنية .

4-كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية , سوى العنكبوت , وقد ورد في صدرها إحدى عشرة آية ذكر فيها المنافقون وهي مدنية على الراجح .

5-كل سورة فيها (**يَاأَيُّهاَ الَّذِينَ ءَامَنُوا**) وليس فيها (**يَاأَيُّهاَ النَّاسُ**) فهي مدنية .

الخصائص الموضوعيّة للمكّيّ والمدنيّ :

أولاً : خصائص المكيّ :

للقرآن المكي خصائص تميز بها في موضوعاته وسمات أسلوبه يمكن إجمالها فيما يلي :

1- بسط القول عن توحيد الله , وإفراده بالعبادة , مع إبطال الشرك ومجادلة المشركين بما يقطع حججهم ويلجم ألسنتهم بالأدلة والبراهين العقلية والآيات الكونية , مع إثبات صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم , وأن القرآن كلام الله ، وأن البعث حق , وتفصيل الحديث عن القيامة وهولها , وذكر الجنة ونعيمها , والنار وعذابها .

2- تشريع أصول العبادات، والمعاملات، والأخلاق التي يقوم عليها كيان المجتمع والتي دعت إليها كل الديانات السماوية، كقوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَ الاِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ اِلْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَّكَرُونَ)** –النحل 90- كما تتناول فضح جرائم المشركين وما كانوا عليه من سوء العادات كسفك الدماء , ووأد البنات , وأكل أموال اليتامى والضعفاء ظلماً ونحو ذلك .

3- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً وعظة للمشركين , وتسلية وتثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

4- قصر الآيات والسور غالباً مع قوة الألفاظ, وإيجاز العبارة, وبلاغة المعنى في أسلوب يكثر فيه التأكيد، والتهديد، والوعيد, وضرب الأمثال, وتكرار بعض الجمل والآيات .

ثانياً : خصائص المدنيّ :

1- بيان العبادات كـ (الصلاة والصيام والزكاة)، والمعاملات كـ (النكاح، والطلاق، والبيوع), والحدود, كـ (حد الزنا،والقذف، والسرقة), ونظام الأسرة, ونظام الدولة من قواعد وأحكام للسلم والحرب .

2- دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام، وإقامة الحجة عليهم، وبيان تحريفهم وانحرافهم، وكشف سوء ماضيهم وواقعهم, كما نجد ذلك بصورة واضحة في البقرة وآل عمران والتوبة .

3- كشف الستار عن حقيقة المنافقين, وبيان صفاتهم الذميمة، ونواياهم السيئة, وخبثهم، ومكرهم، وكيدهم، وخطرهم، وجبنهم، وهلعهم، كما جاء ذلك في التوبة والأحزاب والمنافقون وغيرها .

4- ذكر كل الأحكام الخاصة بالجهاد والحروب والغزوات، وما بينها من صلح ومعاهدات، وما فيه من غنائم، وفيء، وأسر، كما نجد ذلك في : البقرة والأنفال والتوبة ومحمد والفتح .

5- طول أكثر الآيات والسور, بما يتناسب مع البسط لتوضيح شرائع الإسلام وأحكامه في أسلوب يغلب عليه هدوء العبارة ولينها, في خطاب يغلب فيه النداء الإيماني .

فوائد العلم بالمكي والمدني :

أولاً : يساعد على فهم وتدبر القرآن بصورة دقيقة وسليمة .

ثانياً : الاستعانة به في ربط معاني القرآن بواقع الحياة ووقائعها وأحداثها, فإننا نتعلم من القرآن المكي أن الناس في أوقات ضعف الدعوة وبداياتها, يحتاجون إلى أن يزودوا بقصص الأنبياء والصالحين تسلية وتثبيتاً , وكيف صبر أولئك حتى نصرهم الله , وأهلك عدوهم مع عدده , بأسباب لم تكن في حسابهم ، وأن يذكروا كذلك بالصبر على الأذى, والتحمل , وضبط النفس, وكيف تحسم الفتن الداخلية ؛ فإن هذا التدرج في النزول مدرسة تربوية , تعليمية , لا حدود لها أمام الأمة بأثر , ونحن لم نأخذ منها إلا القليل.

ثالثاً : تمييز الناسخ من المنسوخ, وذلك لأن علم الناسخ والمنسوخ قائم على علم المكي والمدني الذي يهتم بتاريخ نزول الآيات والسور, حتى نستطيع تميز المتقدم من المتأخر في النسخ عند التعارض في الأحكام.

رابعاً : الاستفادة من تدرج نزول القرآن الكريم في التعليم والدعوة، أولاً في ترتيب أولويات الخطاب الدعوى؛ وذلك بالبدء بالأهم في معالجة أمراض الأفراد والأمم، إذ أن القرآن المكي ركَّز على إصلاح العقيدة, وتقويم السلوك, والأخلاق, وبعد أن ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحرام والحلال, وتفاصيل الأحكام, لأن الإنسان إن صلَّى , وصام , وحج, وفعل الخيرات؛ لكن كان مشركاً بالله ما نفعه ذلك عند الله تعالى.

خامساً: الوقوف على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لأن نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ساير تاريخ الدعوة بمراحلها المختلفة, حيثما كان , ومن هنا كان القرآن الكريم هو المرجع الأصيل للسيرة النبوية, وعليه تصحيح روايات أهل السير التي ليس لها سند صحيح .

سادساً: معرفة مدى عناية المسلمين واهتمامهم بالقرآن الكريم , وجهودهم المتواصلة في خدمته حفظاً، وفهماً، ومتابعة لزمان نزوله ومكانه بما يورث الثقة ، ويزرع اليقين في وصول هذا الكتاب إلينا دون زيادة أو نقصان , إذ أن الأمة لم تهتم فقط بنقل النص أو تفسيره , وإنما اهتموا كذلك بزمان نزوله ومكانه.